على الغلاف

2005 ـ 2018: الحريري الثاني

بين 14 شباط 2005 و14 شباط 2018، رحلة شاقة لرئيس «تيار المستقبل» سعد الحريري على درب الوراثة السياسية. توريث فرضه دم رفيق الحريري وما أنتجه من عصبيات، لا بل من تحولات في المشهد اللبناني، لا تزال بعض تداعياتها حاضرة حتى يومنا هذا

زياد البابا

صار رئيس مجلس الوزراء سعد الحريري مثل معظم الساسة في لبنان. قبل ذلك، لم يكن يختلف عنهم كثيراً، إلا بوصفه وكيلاً حصرياً للسياسة السعودية. الآن، بات يشبههم كثيراً في احتراف التقلبات والمقايضات. معظم الساسة اللبنانيين على شاكلة المتعهدين. يمكنك استئجار خدماتهم، لكن ليس بمقدورك أن تشتريهم، لا لضعف الملاءة المالية وارتفاع المقابل لقيمتهم، ولا لعفة عندهم أو لكونهم عقائديين وذوي مناعة أخلاقية، بل لكونهم على مثال رجال الأعمال يدركون بالفطرة والممارسة أن الاستثمارات الآجلة وبيع الخدمات تنعقد بضمانات آمنة توفر أعلى معدلات الكسب.

مع أزمة الاحتجاز، قرر الانتقال من موقع الناطق باسم المملكة في لبنان الى موقع الوكيل، وهو يعلم أن دون ذلك معارك كثيرة أكثرها ضراوة في حيز من يمثل. أما أسوأها فمع من كان يتحالف أو يعتقد أنهم حلفاء وأصدقاء إلى حين اختفائه المفاجئ في الرياض إثر استدعائه على عجل. قبل ذلك، لم يكن الحريري ناسكاً في السياسة، بل كان يضاهي رفاق والده في الجمهورية الثانية حذاقة. سيرته المديدة في عالم المال والأعمال صقلت مهاراته التفاوضية في إبرام التعاقدات والتعهدات الملتبسة. أكثر الوقائع دلالة في هذا السياق، كان في المسالك المتعرجة التي سلكها إياباً للعودة الى رئاسة الحكومة، بدءاً بتبني ترشيح النائب سليمان فرنجية، وصولاً الى تسليمه بأن القوى المقررة في النظام اللبناني لا تخضع في أحجامها وقدرتها لغلبة ديموغرافية أو مذهبية أو اقتصادية تدّعيها هذه الدولة أو تلك على مستوى الإقليم.

وخيراً فعل سعد الحريري في الاستغناء عن المناداة بالعروبة كونها في الأصل لغة لا يجيدها هو لا رطانة ولا خطيباً. صار الرجل يطل على اللبنانيين مبشّراً بفضائل «التوافق» و«الاستقرار» بعدما أصلى غير قوة وزعامة ناراً حامية لقرارها «النأي بالنفس» يوم اندفع هو وحده خبط عشواء في ما سُمي «الربيع العربي» مغامراً بلبنان وأهله ليضعهم على خط الزلازل في سوريا، وصولاً الى إقامة مركز تنسيق في مدينة غازي عنتاب كان يديره النائب عقاب صقر وتسبب بإفلاس الحريري المالي، على ما قال وزير خارجية قطر السابق حمد بن جاسم ولم ينبر أحدٌ إلى الآن لدحض ما ساقه الأخير. أيضاً صار مهجوساً بـ«النأي بالنفس».

لأسباب عدة، بدّل الحريري مواقعه، لكن أعمق هذه الأسباب أثراً يتعلق بما يعرفه ويكتمه ويسميه «بحصة» أجّل «بقّها». أدرك أن العزوف الآن عن «بقّ البحصة» يكسبه هامشاً للتفاوض يستعيد من خلاله بعضاً من ثروة لم يكترث سابقاً لحجمها، بينما يسعى الآن عبر مقايضات داخلية وخارجية إلى استعادة شيء منها ينجيه من استحقاقات متراكمة وأخرى مقبلة، وكلها شديدة الصلة بالزعامة التي يُنشدها وقد صارت مشقة بعدما آلت إليه إرثاً بالدم يوم كان لا يملك أرجحية تخوّله تنكّبها ليكون ممثلاً للطائفة السنية على نحو يُرسي ما أرادته المنظومة السنية العربية التقليدية. منذ دخول والده النادي السياسي اللبناني، أصلى الأخير وجهاء السنة وبيوتاتهم السياسية حرباً تهميشية أدت الى ضمور المؤهلين لقيادة الطائفة في بلد موسوم بكونه مختبراً لسياسات كثيرة، أكثر من كونه دولة بالمعنى الحديث للدول.

المفارقة أن ولادة الزعامات اللبنانية ـ عند الطوائف كلها ـ مسألة بالغة التعقيد والحساسية. والغالب منها كان يولد على الدم والمأساة. هكذا حال وليد جنبلاط بعد اغتيال والده. وكذلك كان وضع نبيه بري بعد اختطاف الإمام موسى الصدر. واغتيال بشير الجميل صنع من شقيقه رئيساً بعدما كان في أحسن الأحوال عيناً من أعيان المتن بالتحديد والكمال. في الأساس، فإن بشير الجميل صنع زعامته على دم المسيحيين «لتوحيد بندقيتهم». وعلى دم «حرب الإلغاء»، انشطرت الزعامة المسيحية بين قائد الجيش آنذاك ميشال عون وبين قائد «القوات اللبنانية» سمير جعجع. لكن كل هؤلاء كانوا قد خطوا شيئاً من سيرتهم في المراس السياسي. وحده سعد الحريري دخل النادي كرجل أعمال ناجح وسياسي ضعيف. ولهذا احتاج على الدوام إلى دعم دولي ليكون وازناً بين أقوياء الطوائف الأخرى.

وإلى الإحاطة العاطفية التي نادت بالحريري الابن زعيماً إثر اغتيال والده، فإن رئيس حكومة لبنان في عام 2009 اكتسب قوته وحضوره من الدعم الدولي (وتحديداً الأميركي ـ الأوروبي)، وأيضاً من الدعم العربي (السعودي ـ المصري). كان واضحاً أن الحريري يلبي حاجة ملحة لهؤلاء الداعمين الذين توسموا في الحريري ودم والده قدرة لتعديل وقائع الاجتماع اللبناني، وأكثرها سفوراً وابتذالاً التدخل في عمل الجهازين القضائي والأمني من خلال قرار إنشاء المحكمة الدولية الخاصة بلبنان ومن قبلها القرار 1559 ومن بعدها القرار 1701.

الدعمان الدولي والعربي ـ تطابقا أو تمايزا ـ ارتكبا خطيئة أصلية سبقهما إليها قومية عربية بأسماء كثيرة ناصرية وبعثية، وقومية لبنانية مقيتة جعلت من لبنان فندقاً متميزاً بخدماته لمن يحوز قدرة استئجار

مشقة الزعامة... والـ

السياق العام منذ 14 شباط 2005 حتى الآن جعل الحريري هدفاً لسهام حلفائه أحياناً أكثر مما كان يتعرض له من معارضيه (هيثم الموسوي)

يدرك سعد الحريري أن ما أخذه في انتخابات 2005 ثم 2009، من أكثرية نيابية موصوفة، لم يُتح له أن يحكم البلد وحده. لذلك، صار يتبنى خطاب الصيغة. لبنان بلد توافقي ولا يحكم إلا بالتوافق، وكل طائفة تملك حق الفيتو سواء أكانت كبيرة أم صغيرة. يسري ذلك على ما يمكن أن تنتجه إنتخابات 2018 بفضل قانون نسبي قد يعطي الأكثرية لخصومه، أو يجعلها متحركة تبعاً للحراك الانتخابي الحاصل والتموضعات المتبدلة

زياد البابا

في مؤتمر دافوس الأخير، ذهب سعد الحريري أبعد مما نصحه به واحدٌ من لصيقين بموقعه. الأول، بارع في اجتراح الصفقات ولا يتوخى موقعاً سياسياً. الثاني، يدعي تمرساً سياسياً اكتسبه من إقامته الطويلة في الصيغة اللبنانية خلال الجمهوريتين الأولى والثانية وما بينهما من مسافة حربية، ويغضن طموحاً معلقاً على استثناءات ووقائع سياسية كبرى توازي ما يسعى إليه سراً وخفية. في أنقرة، قفز الحريري إلى الأمام أكثر فأكثر. هناك تطابق إلى حد التشابه مع الموقف التركي من الوضع في سوريا، قائلاً عنه ونظيره بن علي يلدريم: «لا مخرج إلا بحل سياسي يضمن عودة النازحين». أسقط كلمة «الآمنة» التي كادت تقسم لبنان بعد عودته إلى رئاسة الحكومة إثر انتخاب ميشال عون رئيساً للجمهورية. تجنب الحديث نهائياً عن مصير الرئيس بشار الأسد أو مستقبله.

ما أطلقه الحريري مع يلدريم من أنقره كان رسالة واضحة إلى السعودية عن قدرته على التمايز معها من دون أن يكون الجحيم قدره المحتوم. أراد إثبات بلوغه سنّ الرشد السياسي، فطلب الدعم التركي لتعزيز الجيش، بينما علقت الرياض ذلك الدعم في أكثر اللحظات الأمنية والعسكرية حراجة خلال حرب لبنان على الإرهاب. الرجل يفعل ما يفعل، لكنه لا يستعدي «مملكة الخير»، بل لتقدم المملكة «الخير» بما يعينه على استعادة ما كانه يوماً قبل أن يتبدد جراء الانخرط في الحرب السورية تخطيطاً ودعماً وتمويلاً، فضلاً عن نقل مقاتلين عبر الأراضي اللبنانية، وقبل عامين من لحاق «حزب الله» به إلى هناك لتحييد لبنان. الأقربون يعرفون ذلك تفصيلاً وفرعاً، لكن موعد البوح به لم يحن بعد، على ما يقول من اضطلع واطلع.

الحريري لم يخلع العباءة السعودية، ولا يريد أن يفعل. كل مناوراته ترمي إلى تعديل تصنيفه بوصفه أقوى الأبناء وليس أفضلهم. احتجازه، ولو كان لأسباب قبلية، فاعلها يزعم حداثة صدم الرئيس الذي كان لحظتها ركناً من أركان تسوية باركتها الرياض. خشيته الكبرى تكمن في الوصول إلى نقطة لا عودة بعدها: التخيير بين جنسية من اثنين: اللبنانية أو السعودية. لذا، إن كل ما يؤتيه شكلاً ومضموناً لا يزال في دائرة الرهان على السعودية وملكها المستقبلي محمد بن سلمان. ما أثار هلعه البث المكثف عبر قناة «العربية» لخبر تظاهر عشرات اللبنانيين الموظفين في شركة «سعودي أوجيه» للمطالبة برواتبهم وتعويضاتهم. استشعر ومعه بعض مستشاريه أن ذلك مقدمة لتأميم ممتلكاته في الرياض على غرار ما حصل مع